

الباب العاشر

جرائم السجن

مقدمة بقلم برنارد شو :

إن السجن اليوم جريمة أسوأ من تلك الجريمة التي يرتكبها الضحايا والمجرمون ، لأنه ليس هناك مجرم واحد يستطيع أن يكون عنواناً للشر المجسم أو منتهكاً من الطراز الأول كآمة تدعى النظام وتشيع عن نفسها أنها تحارب الموبقات في كل مكان وزمان .

إذن فإذا كان أى إنسان على استعداد لقراءة هذا الموضوع الخطير بروح ماؤها انه من محبذى إنشاء معاهد الإصلاح والتنذيب ، فإني أرجوه مخلصاً أن يترك الموضوع ، ويذهب فيعمل شيئاً آخر . لأن هؤلاء المصلحين الذين ارتكبوا في الماضي أخطاء كثيرة جاءت عن طريق التعصب وبذر بذور الفساد حولوا معاهد الإصلاح هذه إلى مقارنات شيطانية للعذاب والهلاك ...

وإذا كان العكس ويعود القاريء يعتذر ويندم فليقرأ من غير توقف .

إن الصعوبة في إيجاد مذنبين نادمين عندما تقع الجريمة لها وجهان : الوجه الأول أننا جميعاً نشأنا نعتقد بأنه يمكننا أن نخلص مما ورثناه من أجدادنا وآبائنا من مثل هذه العيوب دفعة واحدة لتأصلها فينا وتدرجها من جيل إلى جيل من آباءنا ومصلحينا أو بأى كبير كان له علينا سلطان ما ..

والوجه الثانى ، أننا نشأنا معتقدين بأن المجتمع لا يخطئ .

أما اليوم فإن المجتمع لا يخطئ بحسب ، بل يرى المجرم ، ويزور الحقائق ويطمس معالمها ، ويسىء إلى ذلك الذى يحاول أن يكشف عن أخطائه ومفاسده . مجتمع كجتمعتنا يغشوه الفساد وتسيطر عليه أساليب الانانية وحب الذات وإهمال حقوق الفرد في الحياة .

وعلى هذا فشعبنا اليوم شعب سفوسطائى وحقود معاً .

فالقضاء مثلا ، وأصحاب الامر والنهي ، يعيشون طيلة حياتهم يرسلون زعماءهم
البشريين إلى أعماق السجون ، وعندما تصام بهم بعض الاخبار بأن السجون في غاية
الوحشية والفسوة على نزلاتها ، وأن لا إنسان يصلح للعيش هناك فإنهم سرعان
ما يجيبونك والهدوء مرتسم على وجوههم : ليس القصد من السجون أن تكون
فنادق أو دور راحة واستجمام...

(١) التعميم ——— نذير

ليس في استطاعة الناس أن يعرفوا شيئا عن خفايا السجون ، وما يدور في جنباتها
من أحداث ومهازل . وأول ما يتبادر إلى أذهانهم هذا السؤال : هل للمجرم الحق
في أن يشكو من المعاملة القاسية التي يلقاها في السجن ، وهو الذي سبق أن ساء التصرف
واقترف جرما يعاقب عليه بنص القانون ، فاقبيل إلى هناك لينال جزاءه
واستحقاقه ؟

ثم يسألونك أيضاً : ولماذا وعن أى شيء يشتكى ؟

فتجيبهم : إن ندم المجرم ، يبدو لك في سكونه المطبق . وفي وحدته وعزلته ،
وتضييعه وقته الذي كان يجب أن يستفيد منه لصالح نفسه وصالح غيره . وتقديره
لرؤية المسؤولية وللسجن بين جدران أربعة مدة طويلة أو قصيرة من الزمن يعيشها
على أحر من الجمر .

ولكنك أيها القارئ قد تقول : لماذا تتحدث بالذات عن التعذيب ، كأنه أشبه
بزيت مغلي أو عود حديد ساخن ؟

وقد تقول : انظر إلى نفسك . انك تعيش في منزل أنيق تحوطه حديقة غناء ،
تطلب الراحة والاستجمام والمزلة والفرار من المجتمع .

فأجيبك : إن الفارق بين سجنى وسجن المجرم العادى كبير ملحوظ . فأنا أنحاص
من مسؤولياتي واضيع أوقاتي في كسل وتراخ كجنتيلان حقيقي . أسرى عن نفسي
ولكنى لا أضيع وقتى سدى أيها القارئ الكريم ، لأنى أفيدك وأفيد مجتمعك المرذول .

ما السجن إلا مكان مشروع تنفذ فيه أقصى أنواع العذاب المعروفة ، بدليل
أن سيد القرية صاحب الضياع الواسعة والاصطبلات الكبيرة يفصل سائساً من
الخدمة إذا ساء معاملة خيل من خيوله الجميلة المظلمة ، ولن يخطر على بال سيد القرية

أن اصطبلاته سجون للخيول . وأن المكان الذي تعيش فيه خيله ليس مكانها الحقيقي من الطبيعة والخلاء .

في شباني شهدت الممثلة الإيطالية العالمية « ريسيتوري » وهي تقوم بدور « ماري ستيفوارت » ولم يسترح نظري شيء في تمثيلها غير مرحها ، ومدى التأثير الذي طرأ عليها عند ما وجدت نفسها في الهواء الطلق تنعم بالحرية بعد شهور السجن الطويلة . وعند ما رأيت جمهرة من « السياس » وهم يبطحون على السندس الأخضر ، ذكروني « ريسيتوري » ، فعرفت لتوي أنهم انطلقوا حالا من سجون اصطبلاتهم .. وفي السجون ترى أكواما من الناس يرزحون تحت عبء ثقل من العذاب والالم . فلا نوم هادئا ولا راحة بال . ليالي المجرم هناك أحلك من الظلام . أسرة خشبية ملوحة جافة خشنة ..

ثم يأتي شيء آخر له أهميته وحسابه . وهو أن الناس عند ما يفكرون في أمر هؤلاء المجرمين التعماء ، فإنهم لا يصلون بتفكيرهم إلى حدود المنطق السليم ، بل يسيئون إلى نواحي الإصلاح ويعرقلونها ... ولنضرب لذلك مثلا فنقول : خذ جماعة المديرين الذين يهدفون إلى إصلاح السجون ، إنهم يحنون جنابة كبرى على وسائل الإصلاح ولا يعملون بالقول السائر « السجن إصلاح وتهذيب » ، فإذا كان عليك أن تعاقب مجرما بغية إصلاحه فإنك بعقابك له تسيء إليه أو تسبب له جرحا جثاميا ، وإذا كان عليك أن تهذبه يجب أن تحسن حاله . والرجال لا يمكن إصلاحهم بالتعذيب أو التشكيل أو تشويه معالم الجسد ..

وتهذيب الناس وإصلاحهم بنفس الطريقة ، كأنك تأخذ رجلا مريضا بالتهاب الرئة وتحاول أن تشفيه بطريق التأديب ، وإذا تقول أن الرجل المريض بذات الرئة رجل خطير على المجتمع ، وأنه لا يمكن أن يصاب بمثل هذا المرض إذا كان ملتفتا إلى نفسه تمام الالتفات ، فإنك ستصل إلى حل أخير فخواه أنه سينال درسا قاسيا أو لا بمعاقبته لإهماله وضعفه ، وردع الآخرين لتلاسيروا على منواله . وأنت بذلك إنما تجرده من ثيابه وتتركه عاريا طوال الليل تحت رحمة الانواء والعواصف والنليج .

ولكن مادمت مقتدرا على رد صحته له ، إذا أمكنك ذلك ، وإرجاءه برئتين سليمتين ، تعين طبيبا خاصا ليباشر عملية العقاب ، ليأمر المريض باستعمال أقراص

الدواء المرة ويجرع ما يقدم اليه من شراب كالمقم في غير تردد أو احجام .. ذلك في ذلك مثل هؤلاء الرؤساء الذين يأمرؤن بمثل هذا العلاج .. وفي املاء الاوامر لذة لا تعادلها لذة عند هؤلاء الرؤساء والمصلحين ، وهذا لا شك يشبه لنا مقدار جفاء نفوس هؤلاء الرؤساء الذين لا يقدرؤن النتائج ولا يعلمون لها أى حساب ..

وعندما عمد المصلحون إلى إدماج العقاب وتنفيذه مع الإصلاح العقلي والذهني وقعوا في نفس الاحبولة والشرك . فمن المعروف أن إصلاح المجرم شيء ثابت في الذاكرة ، وتحطيم احترام قوانين السجن ذاته ، عن طريق التعذيب الآلى ، شيء معروف ومجرب . والعزاء الوحيد لمثل هذه المتناقضات أنه ما دام المعتذبون انفسهم يشعرون بأنهم لا بد أن يكونوا كذابين ومرائين ، فإن ضميرهم لن يكون مرتاحا عند تنفيذ التعذيب . ولكن المتناقضات بديهية هنا ، وذلك لأننى أضعمهم في نفس الصفحة ، ورؤساء السجون ومديروها يضعونها في صفحات مختلفة على حدة ، وذاكرة القارئ ، كما يظهر لي ليس في وسعها أن تستسيغ كل شيء ، لأن هناك أكثر من شيء واحد يجهله القارئ عما يدور في السجون وما يجرى في أركانها ..

وعلينا أن نذكر بعض موانع وعوائق المحاكم ، لأنها هي الأخرى وسيلة لهدم طرق الإصلاح والتهديب .

مثال ذلك أن قوانين الدولة تنص على عقاب هؤلاء الذين يخالفونها . وتنزل بهم أقسى أنواع العذاب . وأن الآخرين يقبلون نصوص هذه اللوائح والقوانين لأنهم يخافون مخالفتها ، ولذا فإن النظام يمكن أن يحفظ إلى حد مناسب بين المخلفات من غير أن تفهم ضرورته . أو إذا فهموه من غير شعور أو وعي تباعدوا عن مخالفتها . وهذا هو الأساس الفج لسكل انظمتنا . نظام المدرسة والمصنع والجيش والبحرية والسجون ، وكل ما يتعلق بقانون الاجرام . مثل هذه الانظمة ليست فقط موضوعة بواسطة حكام قساة ولكن ببشر غلاظ القلوب جفائة .



منزل برنارد شو و بآیوت سانت لورانس

(ب) لا يمكن القضاء على الجريمة بالشفقة

من الخط أن يقول المصلحون بأن الخارجين على القوانين يمكن اصلاحهم بطريق الشفقة أو المعاملة الحسنة . وقد يكون هذا صحيحا في حالات نادرة إذا وجدت الرجل الصحيح الذى يختار اسوأ هؤلاء الرجال الخارجين على القانون ويمهد لهم الوقت الكافى لمعالجتهم العلاج الناجع . أما إذا لم يتوفر وجود ذلك الرجل الصحيح فإننا نجد رجل البوليس والجلاد خير من يتعهد المسكين بتنفيذ اصرم العقاب عليه فى وقت قليل وبلمدة وبنشوة تدعوان إلى الإعجاب . وطرق القسر والإرهاب طرق مشروعة محللة فى عالم السجون ، وإن كانت تتنافى مع الرسالة الإنسانية وتخالف المبادئ العليا ، وبموجبها تولد فى المجرم عقدة نفسية كثيرة وتزداد وحشيته ويفقد أمله فى الحياة والوجود تدريجيا .

وفى السجون أيضا نجد أن الحراس يحمون أنفسهم من قسوة المجرمين وطغيانهم بكل الطرق المشروعة فى السجن ، وهى استعمال القسوة الدائمة والضرب المستمر . والعقاب الرسمى فى مثل هذه الأحوال هو الجلد وتقييد المجرمين فى الاغلال عدة شهور .

إن نظام سجوننا نظام يفتقر إلى تجديد وإصلاح . ونظرية العقاب الصارم الذى يطبقونه على المجرمين والمتوحشين منهم لا بد له هو الآخر من اصلاح وترميم . وليس معنى هذا أننى أرمى إلى معاملة المجرمين بالحسنى أو بالشفقة ، فالشفقة فى هذه الحالة ان تجدى نفعا ولن تفيد اصلاح نفوس هؤلاء التمساء من البشر المساكين ، ولكن خير طريقة مثل هى معاملتهم معاملة بين بين . بين الرقة والقسوة ، وأن يهدف المشرع أو المصلح إلى اصلاح حالهم ونزع الشر من نفوسهم بطرق كثيرة لا بد أن يعمل لها كل حساب .

ولكن التجربة القاسية أثبتت أن مثل هؤلاء المشرعين أو المصلحين أو المديرين أو الحكام قوم لا يعملون مطلقا على اصلاح نفوس هؤلاء التمساء ، بل يخافونهم على الدوام ويرهبون جانبهم ويتحاشونهم فلا يعمد واحد منهم إلى تقويم ما اعوج من نفوسهم وما تداعى من بنيان كياناتهم .



برنارد شو أمام تماشال له من صنع «رودان»